**البنائية والتعليم**

في الثلاثة عقود الماضية حدثت تغييرات كثيرة في دور المعلم والمتعلم في العملية التربوية، ويأتي ذلك مع التطور في نظريات علم النفس التربوي ونظريات التعلم. كما نشهد تطوراً علمياً وتكنولوجياً هائلاً يحتم علينا مواكبة التغيرات المستمرة في عالم المعرفة العلمية، لذا لا بد لنا من الإهتمام بطرائق التدريس، وبما أن أبرز أهداف التعليم إكساب الطالب الثقافة العلمية بحيث يكون قادراً على نقل المفاهيم والمعرفة العلمية إلى سياقات الحياة الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، واتخاذ القرارات وإيجاد حلول لمشكلاته اليومية، لذلك ينبغي أن تعكس المناهج التعليمية هذه الأهداف من حيث محتوى المادة العلمية واستراتيجيات التدريس وأنشطة التعلم (Lahrty,2000).

وتعتبر النظرية البنائية توجهاً حديثاً يسعى لتحقيق هذه الأهداف، وتعرف النظرية البنائية في المعجم الدولي للتربية بأنها رؤية في نظرية التعلم ونمو الطفل، بحيث يبني الطفل أنماط تفكير خاصة به نتيجة تفاعل قدراته الفطرية مع البيئة المحيطة والخبرة (عياش والصافي،2007)، ويرى(Prawat & Folden, 1994) أن البنائية نظرة فلسفية تهتم بالبنية العقلية عند المتعلم، وتعتبر نظرية في المعرفة والتعلم، حيث تبحث في طبيعة وكيفية بناء المعنى للمعرفة في البنية الذهنية، كما تؤكد أن الأفراد يبنون معارفهم الجديدة في ضوء خبراتهم التي مروا بها من قبل.

وتفترض النظرية البنائية أن التعلم عملية مستمرة تسعى لتطوير بنى معرفية جديدة تعيد تنظيم خبرات المتعلم السابقة، وذلك يتم ببذل المتعلم جهداً معرفياً للوصول إلى المعرفة التي تتطور من خلال التفاعل الإجتماعي مع الآخرين، حيث ترى البنائية أن التعلم عملية اجتماعية وتركز على دور الآخرين في بناء المعرفة. كما تفترض أن التعلم يحدث بصورة أفضل عند مواجهة المتعلم بمشكلة حقيقية واقعية مرتبطة بالحياة اليومية، حيث يحدث عندئذ بناء للتعلم ذي المعنى عن طريق الربط بين المعلومات الجديدة والمعرفة السابقة للمتعلم، والتي تعتبر مكوناً أساسياً لحدوت التعلم.

والهدف من عملية التعلم بالنسبة للبنائية فهي إحداث تكيفات تتواءم مع الضغوط المعرفية الممارسة على خبرة الفرد، هذه الضغوط تمثل كل ما يحدث حالة من الإضطراب المعرفي نتيجة المرور بخبرة جديدة، كما تهدف إلى تطوير مهارات التفكير الناقد والعمل الجماعي والإستقصاء (Rolleff,2010 )، فالبنائية تهتم بوضع الطالب في بيئة تعلمية تقود إلى الإكتشاف من خلال تهيئة الفرص أمام المتعلمين لاستغلال البيئة المعرفية والعقلية والتفاوض الإجتماعي والنقاش لحل المشكلات التي تعزز التعلم (عياش والصافي، 2007).

إن عملية تكوين المعرفة لدى المتعلم تحدث من خلال التفاعل النشط بينه وبين البيئة، هذه المعرفة يتم تنظيمها في الدماغ في بنى معرفية أسماها بياجيه مخططات فكرية (schemas)، كما أن عملية نمو هذه المعرفة تخضع لثلاث عمليات معرفية مترابطة (Bybee and Sund, 1982):هي:

1. التمثل (assimilation): وتشير إلى تعديل المثيرات والخبرات الخارجية لتتفق مع البنى المعرفية الموجودة لدى الفرد من خبراته السابقة، وفي هذه المرحلة يحدث تعارض بين المعارف الجديدة ومعارف الفرد السابقة مما يؤدي لفقدان التوازن.
2. المواءمة (accommodation): يقصد بها تطوير مخططات جديدة تتفق مع خصائص الخبرات الجديدة، وتحدث حين يشعر الفرد بأن بناه المعرفية غير قادرة على تفسير الخبرات الجديدة، وفي هذه المرحلة يستعيد الفرد التوازن الذي فقده عند جمعه للمعلومات الجديدة. وتسمى عمليتي التمثل والتواؤم بالتكيف.
3. التنظيم (organization): يتم في هذه العملية إعادة تشكيل البنية المعرفية عند حدوث التعلم، حيث تتم عملية المواءمة بين الخبرات السابقة والخبرات الجديدة، وإنتاج بنى معرفية ذات مستوى أكثر تعقيداً.

أما دور المعلم في العملية التعليمية فهو خلق مناخ تعلم بنائي من خلال تصميم خبرات وأنشطة تفاعلية تساعد المتعلم على تكوين وبناء معلومات جديدة في ضوء خبراته السابقة، وهذه الخبرة السابقة لا بد للمعلم من الكشف عنها وتشخيصها حتى يحدد الأنشطة المناسبة. وما أن يتم تشخيص المعرفة السابقة حتى يقوم المعلم بتزويد المتعلم بمعلومات أساسية تمكنه من صنع معنى من خلال النشاطات التي يتفاعل بها مع الآخرين (Garmston &Wellman, 2002)، ويتدرج المعلم في تعقيد المفاهيم والمعلومات التي يطرحها مع تدرج المتعلم في السيطرة على التعلم السابق (2010Rolleff,). ويضيف عبد الحليم والصافي (2007) أن دور المعلم يتمثل في إقدار المتعلم على إيجاد العلاقات بين المفاهيم التي تساعده على بناء معنى خاص به، وهذا يتطلب أيضاً طرح الأسئلة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطريقة التي أنشأ بها المتعلم معرفته الأولية المتصلة بموضوع التعلم.